

بحث في الاستعمار الاوروبى وسيطرته على العالم

١ — مشا كل العالم الجديد

حينما ندرس حالة العالم بعد الحرب الأخيرة يتبين لنا بوضوح أن تاريخ الانسانية لم يعرف عهداً مملوءاً بالمشاكل والمتناقضات والانقلابات المتتالية والتغيرات السريعة التي تنفرد بخروجها عن كل قاعدة ومخالفتها للمألوف والمعهود مثل الذى نراه أمام أعيننا اليوم .

٢ — صعوبة الدرس

هل بوسعنا أن نستخلص بعض القواعد العامة أو الاتجاهات أو نضبط شيئاً من العلاقات التي تربط بين الأسباب بعضها مع بعض أو بين الأسباب والظواهر ، أو نستبق الحوادث فنكشف عن نتائجها ، أو تنبأ بما قد تأتى به الأيام المقبلة .

٣ — أثر القرن الماضى :

يصعب استخلاص شيء من ذلك الآن نظراً لتتابع الحوادث ،

وتطورها السريع إلا إذا حرصنا على بحث الظروف التي مرت
بالعالم بين حربين . وكشفنا عن الدروس التي ألقاها علينا تاريخ
القرن الماضي بأكمله ، فقد تساعدنا على إلقاء نظرة تمهد لنا الطرق
وتسهل السبل لتكوين فكرة تقرب من الصواب ، تهدينا إلى تحديد
بعض النتائج التي حصلت عليها الإنسانية بعد خروجهما من حربين عالميتين
نقرر ذلك لأن الفترة التي تقع بين ١٨١٥ — ١٩١٤ ، أي بين
مؤتمر فينا ، وإعلان الحرب العظمى الأولى ، كانت مملوءة بالحوادث
الكبرى فهي قد بدأت بتأكيد مبدأ القوميات والمناذاة بتحرير
الشعوب واستقلالها في أوروبا ، ثم خضعت لفكرة حفظ التوازن
بين الدول الأوربية الكبرى ثم كانت فترة الثورة التي نقلت أوروبا
من عهد الاقطاع وبقايا القرون الوسطى إلى عهد الصناعة الآلية
وما يلزمها من تنازع الطبقات وتضخم المدن الكبرى ونمو الرأسمالية
وبروزها كعامل أساسي انشأ في حياة الشعوب الأوربية .
٤ — التوسع الاستعماري الجارف :

وكانت هذه الفترة كل هذا ولكن أكبر مظاهرها هو أنها كانت
عصر التوسع الاستعماري الجارف فمما معنى هذا ؟
أن الذي يبدو لنا في عام ١٩١٤ ، وظاهر الملبوس هو أن الدول التي
توسعت في أملاكها وازدادت علاقاتها بالأمم والمغلوبة والمحكومة
على أمرها ، قد أخذت تتحول من دول أوربية إلى دول ذات صبغة عالمية

وهم منا أن نعرف كيف تمّ هذا التحول، وكيف دخلت الدول الكبرى ميدان الاستعمار فأصبحت غير قادرة على التراجع من ساحته ، والانكماش على نفسها بعد أن ذاقت طعم حلاوته .

كل هذا يمكن تحديده ودرسه : إذا عرفنا شيئاً عن اتجاهات هذا القرن الماضى والتطورات التى تمت فى أثناءه .

٥ — الاستعمار قديم فى مساوئه :

فمن المسلم به أن بعض الدول كانت تملك المستعمرات ؛ وكانت تعرف طريقة استغلال الأراضى والشعوب — قبل العهد الذى أفردنا التكلم عنه — ولكن نشاطها كان محدوداً وفى دائرة ضيقة ولم يكن اتصال هذه الدول بمستعمراتها أو اعتمادها عليها بالقدر الذى وصلت إليه فى الفترة الأخيرة بل كان الاستعمار يمتاز أدوار المحاولات البدائية ، ويتعثر فى تجاربه التمهيدية التى تحمل روح المغامرة الأولى .

٦ — عصر السيطرة :

أما فى الفترة التى أشرنا إليها فقد وصل الاستعمار إلى أوجه الأكبر حتى أن البشرية لم تعرف فى كل أدوار تطورها وكفاحها وفى كل عصورها السالفة بغير استثناء زمناً خضعت فيه شعوب الأرض المختلفة بمذانياتها وتقاليدها بل من نواحي إنتاجها الحكم بعده

أوروبا مثل العهد الذي جاء بين ١٨١٥ — ١٩١٤

٧ — تسابق وتنافس وتزاحم :

ففي هذه اللفته من الزمن اشتد التنافس والتسابق والتزاحم بين دول أوربا الكبيرة والصغيرة القديمة منها والناشئة على احتلال الأراضي وتقسيم القارات لدرجة أن وصل إلى المناطق المتجمدة والصحارى القاحلة فأصبح الجليد والصخر والرمال وجزائر البحار ميدانا لكل هذا ومحلا للنزاع والاطماع ورفع الأعلام وتقسيم مناطق النفوذ بالمعاهدات والاتفاقات .

٨ — ما هو مركز الشعوب والحكومات :

فكل بحث أو دراسة لشئون العالم وكل كفاح في سبيل تحرير الشعوب وإنقاذها من براثن الاستعمار ومشاكله يجب أن يسبقها تعرف هذا التوسع وأثره وأهميته ومداه لكي نستخلص القواعد الأولية التي تعرفنا العلاقة بين الشعوب المحكومة والدول الحاكمة وهي التي تنير بصيرتنا وتحدد مركزنا إزاء أوروبا لكي يركز على أساس منطقي معقول موقف الأجيال القادمة من هذه السيطرة وعلاقتها بما يجيش بصدور الشعوب من آمال وما ترجو الوصول إليه من أهداف حتى تحرر نهائيا منها .

وأول ما يتبادر إلى الذهن هو التساؤل عن أثر هذا التحول

أوالتطور العالمى الذى كان من نتيجته أن انقسمت الإنسانية إلى فريقين

١ — أمم قوية سائدة مستعمرة

٢ — أمم ضعيفة خاضعة : لا تجد رغم جهودها الفرض
لملاحقة الاولى .

٩ — أثر السيطرة الأوربية :

فلنكن هنا صريحين أمام الحقائق وإن كانت مرة علينا .
كان من أثر هذه السيطرة أن تحطمت المدينيات القديمة التى كانت
سائدة فى قارات العالم بل اندثرت وتلاشت بقاياها وآثارها وأنظمتها
أمام مدنية الأوربيين وتفوقهم المادى والعسكرى .
١٠ — نتائجها السلبية والإيجابية :

ان الأثر السلبى كان مظهره ضياع استقلال الشعوب الآسيوية
والافريقية وفقدان حريتها وتصفيه الطبقات الحاكمة فيها فلم يعد
فيها رجال من الصف الأول وهذا النوع من القادة هم عدة الشعوب ودرعها
أما الأثر الإيجابى فهو أن السيطرة الأوربية اقترنت بزيادة
السكان فى المستعمرات بل أصبحت هذه الزيادة مظهرا من مظاهر
الإستعمار الأوروبى ويرجع هذا إلى التقدم المادى وحالة
الاستقرار التى فرضتها الدول الحاكمة حتى لقد لاحظ الاجتماعيون
أن هذه الزيادة فى سكان المعمورة لم تعرفها الإنسانية من قبل فى
أى عصر من عصورها السالفة^(١) .

(١) لا يزال الجزء الغربى من آسيا ووسطها ناقصا فى السكان : فلم تستعد
تركيا وإيران والقوقاز وأراضى التركستان ما كانت عليه من العمران فى السابق

ثم كان من نتيجة هذه السيطرة وما تبعها من تنافس وتغلغل في جهات مختلفة ان ارتبطت أنحاء العالم بطرق مواصلات سهلة كانت أولى آثارها ان خضعت الشعوب خضوعاً أعنى أمام القوة إذ فشلت كل محاولة للثورات واستعمال القوة وأصبحت علاقات الشعوب مع القوة الغاصبة هي علاقة التابع للتبوع^(١).

فهذه ناحية سلبية تقابلها أخرى إيجابية تتخلص في أن هذه الأمم التي جهلت بعضها حيناً والتي تنافرت في الأعصر السالفة وجدت نفسها تحت الاستعمار الأوروبي وما أدخله من سهولة الانتقال في مركز يسمح لها بالتعارف واستعادة العلاقات والروابط التي كانت قائمة بينها يوماً ما ثم انقطعت .

١١ - العلم والاقتصاد سلاح المستعمر :

استقرت سيادة الأوربيين وسيطرتهم على الأرض بتفوقهم العسكري ومقدرتهم على استعمال الأسلحة الحديثة وأمنوا أن تقوم الشعوب عليهم حينما أخذوا بأنظمة تجنيد المرتزقة وكتاب الشعوب الملونة فألقى عبء القتال واستتباب الأمن عليها ونزلت تكاليف الحكم والإدارة إلى أدنى ما يمكن أن تصل إليه فاتقل الإستعمار من ميدان الفتح واستعمال العنف إلى طور جديد هو الاستعانة بالعلم والاقتصاد على تنظيم استغلال المستعمرات وثرواتها المعدنية والزراعية على أسس جديدة

(١) يحيل للكثيرين ان عهد الاستعمار قد انتهى ، اما نحن فنرى ان بعد البلاد الآسيوية أو الأفريقية قد أصبحت تحت رحمة المستعمرين في أي وقت شاؤوا قدفوها بقنايلهم .

أى اتجهت الحكومات وهيئاتها الاستعمارية إلى تحقيق فكرة سيطرة الإنسان على مرافق الحياة وإخضاع الطبيعة لسلطانها وأرادته بكل ما فى العلم من قوة ثائرة Révolutionnaire وما فى الاقتصاد من قوة منتجة وأخذت هذه الاتجاهات تتطور بسرعة فائقة حتى أخذت مظهر الاندفاع للسير بهذه النهضة نحو تحقيق أهداف عالمية .

١٢ — الدراسات العلمية فى خدمة الدول المستعمرة لحكم الشعوب :

أما من الناحية السياسية فقد أخرج القرن الماضى لدى الدول التى تقدم لديها الوعى الاستعمارى نشاطاً أشد خطراً من الأسلحة وأمضى وأعمت أثرأه والدراسات العلمية والنفسية وتطبيقها على إدارة المستعمرات وفى حكم الشعوب المملوكة على أمرها^(١) .

لقد أصبحت هذه الدراسات أقوى دعائم سيطرة الأوربيين ودليل تفوقهم ومقدرتهم على قيادة الشعوب التى يحكمونها وتولى مقاليد زمامها فكانت النتائج التى وصلوا إليها كنسجاً لهم أمام إحدى مظاهر الطبيعة التى ألانواقناتها وأخضعوها لمشيتهم فى عالم الجماد والحيوان فطبقوها تباعاً على فريق من بنى الإنسان الذين أوقعتهم الأقدار تحت أحكامهم .

١٣ — النظام الاقتصادى فى القرن الماضى . « الباب المفتوح »

ومع توالى نجاح الأوربيين فى عملهم أصبحت مشكلة المستعمرات كبرى

(١) يفهم من هذا ان للاستعمار فلسفة : واول من هم فى حاجة لدرواسها زعماء . وقادة الامم الشرقية حتى لا يلزمهم الفشل وتلاحقهم الأخطاء

مشاكل العالم المتمددين لأنها وليدة النظام الاقتصادي الذي ساد الدنيا بين حربين وكان من أثره تلك الازمات التي عايتها الانسانية في العالم الرأسمالي. بعد أن أصبح مكوناً من مجموعات كبرى ذات صبغة عالمية يسودها التنافس. أما في القرن الماضي فقد كان النظام السائد في عالم الاقتصاد هو نظام الباب المفتوح وهو يتلخص في أمرين حرية البحار وحرية التجارة ثم التكافؤ في المعاملة أي محاربة الاحتكار والمعاملة الممتازة وفتح الأبواب المغلقة وتكسير الأسوار الفولاذية التي تفرضها بعض البلاد وتمسك بدرجة من الاستكفاء وبما لديها.

فالبوارج الحرية من مختلف الجنسيات الأوروبية التي قذفت بقنابلها موافى الصين واليابان في القرن الماضي كانت في عدوانها تفرع الأبواب المغلقة وتفرض سياسة الباب المفتوح — وفي مصر كان تساهل الدبلوماسية الأوروبية لبقاء الاحتلال البريطاني يلزمه دائماً اشتراط العمل بسياسة الباب المفتوح وأخذ الضمانات على الأنجليز ألا يكون لهم مركز تجارى ممتاز أو أكثر رعاية في الشئون الاقتصادية والمالية عن غيرهم ولذلك بقيت حرية الحكومة المصرية في فرض الضرائب الجمركية وزيادتها مقيدة كما كانت في السابق أيام السيادة العثمانية رغم سيطرة البريطانيين المباشرة وتدخلهم بغير حق بوجود جيش الاحتلال. (١)

(١) ستعظم هيئة الأمم المتحدة . سياسة الباب المفتوح الاسوار الفولاذية والكتل الاستعمارية لفرنسة وهولنده والبرتغال : خدمه للاستعمار الانجلوسكسوني

وكانت سياسة الباب المفتوح إحدى دعائم القوة البريطانية الاستعمارية بل استغلتها بريطانيا استغلالاً شائناً كلها أرادت التدخل في الشؤون الداخلية للأمم أو إيجاد مبرر لسياستها معتمدة على أنها تعمل بوحى الرغبة الدولية العامة لاحترام مبادئ وقواعد وضعت لصالح المجموع الدولى الأوروبى.

١٤ - النظام الاستعماري يحتم الخروج عن هذه القاعدة :

وحينما تقدمت الدول الأوروبية فى طرق استغلال أراضيها بالمستعمرات وكثرت مواردها وزادت ثرواتها زيادة هائلة ، تطورت علاقاتها مع ممتلكاتها وسارت اشواطاً نحو الوحدة الاقتصادية أو ما يشبه الاتحاد والتكتل بين الدولة الأوروبية وما يخضع لها سياسياً من الأقطار فيما وراء البحار .

وأدى هذا التطور إلى أن أخذت كل وحدة تطمع فى الاستكفاء بنفسها والاستقلال بمواردها .

وظهر هذا الاتجاه فى ناحيتين .

الأولى - أن الميزان التجارى الذى كان يعتمد على حرية التجارة خضع لمقدرة الدول الاستعمارية واستعدادها لتصرف الفائض من منتجاتها الصناعية فى المستعمرات التى تملكها .

الثانية - أن المواد الأولية التى كانت من المبدأ تحت متناول يد

بقية العالم عملاً بمبدأ حرية التجارة أخذت تنحصر رويداً رويداً في الأقاليم الأفريقية والإسيوية وغيرها بيد رجال وشركات الدولة الحاكمة فأصبحت بعد مرور سنوات قليلة محتكرة بيدها وبعبءة عن ومتناول الأسواق الحرة .

ولما كان كوكبنا الأرضى محدود المساحة ولم تبق منه بقعة خالية لم يرفرف عليها علم أحمر أو أزرق أو أخضر ولم يبق شعب من الشعوب إلا وأوقعه الحظ السيئ تحت سيطرة أو حماية أو وصاية جمعت الدول الاستعمارية ثروات طائلة من احتكارها لهذه المواد وكان من الطبيعى أن تتلاقى القوى الاستعمارية على حدود مناطق لا تتعداها وإلا تصادمت مع قوة لا تقل شأنًا عنها .

١٥ - التنافس فى دائرة التوازن بين القوى :

انتهى التوازن الأوروبى إلى توازن عالمى مساح وأدى التوسع الاستعمارى إلى تنافس سلبى ظهرت بوادره ابتداء من القرن العشرين فمشكلة فاشودة المعروفة تمثل القمة فى التنافس الفرنسى البريطانى على اقتسام مناطق أفريقية ثم تلاقت الكتلتان الاستعماريان فى اتفاق سنه ١٩٠٤ المشؤوم الذى أطلق أيدى فرنسا فى شئون سلطنة مراکش واعترف بمركز بريطانيا فى مصر وأوجد الحلول للمشاكل الاستعمارية بين الكتلتين .

ويعتبر اتفاق ١٩٠٧ بين بريطانيا والروسيا حلقة أكلت الاتفاق الأول إذ أنه جعل من إيران مناطق نفوذ وحدد الموقف إزاء أفغانستان وأقاليم أخرى في آسيا وسد الباب على هذا التلاحق والتنافس أو قل أبعدها لاجتماع بين قوتين استعماريتين تخشيان الحرب والتصادم فيما بينهما .

ومع قيام مثل هذه المعاهدات والاتفاقات فإن التنافس بقي قائما بين هؤلاء المستعمرين وغيرهم ووصل إلى مداه قبل الحرب العالمية الأولى سنة ١٩١٤ وظهرت بوادر التسابق على اغتصاب المواقع ذات الأهمية الاستراتيجية واحتلالها وتحصينها خصوصا التي تسيطر على طرق الملاحة والمواصلات الدولية استعدادا للحرب التي كانت لاشك آتية .

١٦— أوروبا تخوض الحرب العالمية الأولى وهي في عنفوان قوتها .

كانت أوروبا في عنفوان قوتها ومجدها وسلطانها وقد ورثت الأرض ومن عليها حينما قامت الحرب العالمية الأولى وكانت حربا قاسية ضروسا خسرت فيها الدول الأوروبية زهرة شبابها ولما وضعت الحرب أوزارها كانت أوروبا كمركب شراعى كبير يخرج من وسط أعصار هائل .

وكان من مظاهر هذه الحرب أن شعوب المستعمرات شاركت

الامم الاوروبية القتال فيها بأموالها ورجالها والغريب أن نتيجة هذه المساعدة كانت وخيمة على هذه الشعوب إذ بمقدار عظيم الضحايا التي بذلت والخدمات التي ادتها المستعمرات ، زادت أطماع الدولة الحاكمة في التمسك بها والتحكم فيها .

١٧ — متاعب أوروبا :

وظهر جليا بعد الحرب أن أوروبا تحطم فيها أكثر ما خلفته القرون الماضية من أنظمة اجتماعية وسياسية واقتصادية .
فلو قدر لمترنخ الوزير النمساوى أو لغيره من أساطين ونمازدة الرجعية الذين خيّل إليهم أن الاقدار تسير طوع ارادتهم ، أن يروا بقايا الانقراض والخرائب التي تركتها الحرب وذلك الفراغ الهائل في نفسية الشعوب ومثلها العليا وكيف كانت هذه الامم قاب قوسين أو أدنى من الدمار والانحلال إذ لن يصعب عليهم أن يحدوا أثرا من الانظمة التي فرضوها على هذه الشعوب في مستهل القرن الماضي .
لقد تحررت أوروبا من آثار القرن التاسع عشر وتقاليده ولكنها لم تنهأ بحالتها الجديدة إذ دخلت عصر اشعرت فيه لأول مرة بالفقر المادى والمعنوى وواجهت نوعا من المتاعب والمشاكل لم تألفه في ماضيها فهي لم تستعد قوتها السالفة ولم تأت لها الايام بالسلم والراحة والطمأنينة التي كانت تحلم بها طول أيام الحرب .

كانت العشرون عاما التي اعقبت الحرب العظمى كشريط سينمائي
للحوادث استمر يعرض علينا مصائب الشعوب ومشاكل الحدود
والاقلليات والثورات المتتابعة (١).

وكان البلقان في القرن الماضي يحمل هذا الطابع فأصبحت أوروبا
بلقاناً ثانياً لأن ما أثارته الحرب وسنرات ما بعد الحرب من المشاكل
والشكوك والريب والأطماع كانت أضعاف ما عرفتته أوروبا في قرنين من
الزمن وقد جاءت هذه كلها وجراح أوروبا لم تلتئم بعد فكانت شديدة
الوقع على الشعوب ومقدراتها.

كانت أوروبا قبل الحرب ست دول عظمى هي بريطانيا وفرنسا
وروسيا ثم ألمانيا والنمسا والمجر وإيطاليا هي التي تسيطر على الحرب
والسلم وتقيم سياستها على قواعد الدبلوماسية السرية وأساليبها الملتوية
وانتهت الحرب فاداً أكبر متاعب أوروبا تسببها مجموعة من الشعوب
الصغيرة التي أوجدتها معاهدات الصلح دون أن تستند على دعائم
تاريخية ثابتة أو أسس راسخة فهذه الدول المرتجلة أمضت العشرين
عاماً بين الحربين تتأرجح بين التيارات المختلفة فهي لم تثبت على
مبادئ واحدة ولم تنهج سياسة معينة وكما كانت في الماضي ستكون
في المستقبل من أهم العوامل التي ستثير الحرب العالمية الثالثة.

فقد كان تنازع هذه الدول على مقاعد عصبة الأمم يضحك أوروبا

(١) ان الفراغ الذي تركته امبراطورية هابسبورج في وسط أوروبا : قد
اعترف به أولئك السياسيون الذي نادوا بتعظيمها — واليوم يعترف
الانجليواميركان بخطأهم في أضعاف ألمانيا وتخطيها.

كما كان اجتماع مجلس التحالف الصغير المكون من تشيكو سلوفاكيا ويوجو سلافيا ورومانيا لتهديد حكومة المجر المجردة من سلاحها يدل على شجاعة ولكن هذه الجرأة لم يجد لها العالم من أثر حينما انفض المجلس وتضام وانكمش امام قرار ضم النمسا لالمانيا الكبرى واحتلال تشيكو سلوفاكيا : لقد انتهى التحالف الصغير وسط ضحكات السخرية والتهكم وقتئذ .

فهذه الشعوب والدول الصغرى كانت تسبب الكثير من الضجيج ولسكنها لم تكن يوما ما مستقلة في سياستها ولم تكن مخصصة لله واثيق والعهود التي قطعها على نفسها بل ستبقى في المستقبل كما كانت في الماضي العوبة بيد السكتل الكبرى .

١٨ — التهيئة للتركيز الاقتصادي في السكتل الكبرى :

فقدت أوروبا مركزها الممتاز وسط الفوضى التي كانت سائدة فيها بانهايار القوة التي كانت تمتسكها شعوبها أمام العالم ، ولذلك انجبت الدول العظمى الاستعمارية إلى دعم مستقبلها معتمدة على عوامل عالمية أو كونية أكثر منها محلية أو أوروبية ، وكان التفوق الصناعي والمقدرة الرأسمالية تسير بالدول الاستعمارية نحو التركيز الاقتصادي أو في طريق خلق نوع جديد من الامبراطوريات الاقتصادية أو الوحدات المكونة من مجموعة من الدول والأمم التي وإن كانت

غير مرتبطة سياسياً فهي متعاونة اقتصادياً ومادياً وهذه كانت بداية
الكتل الكبرى التي ظهرت في العالم ونراها اليوم في عنفوان قوتها.
١٩ - خروجها من الأزمات ومواجهتها للمتناقضات :

ولم يكن هذا الترجية في حلم أحد من الناس بل هو النتيجة
الطبيعية للعوامل التي سببها التوسع الاستعماري الجارف وهذا
التطور الذي صوب العالم وبيدنا كانت هذه الأمم في غمرات هذه
الفترة تسير بخطوات واسعة نحو تأكيد سيطرتها معتمدة على تفوقها
ظهرت المتناقضات في أنظمتها الاقتصادية^(١).

فالأنظمة الرأسمالية وقواعد استثمار المواد الخام وكذلك
شركات البترول العالمية لم يفكر أحد من رجالها في الأزمات المتتالية
التي بدأت سنة ١٩٣٠ وغمرت أمريكا وأوروبا وهددت بالإفلاس
المؤسسات الاقتصادية والمالية الكبرى فلم تكن هذه الرجاءات
أوروبية أو أمريكية أو محلية حتى يمكن تلافيها بل كانت عالمية تشبه
السنوات العجاف التي تحدثت عنها الكتب السماوية .

كانت هذه الأزمات الواقعة بين حربين امتحاناً قاسياً للأنظمة
الرأسمالية وهيكلها الاقتصادي ولقوة المقاومة لدى الدول الكبرى
ثم كانت أهم من ذلك إذ برهنت على قوة الرأسمالية واستعدادها
للخروج منتصرة من وسط الأزمات وقابليتها لمواجهة المتناقضات

(١) لم تظهر المتناقضات في النظام الاستعماري لكل دولة بل في المجموع
الاقتصادي كله نتيجة لسياسة التكتل الانفرادي لكل كتلة من المستعمرات

وهي ميزة لم تتمكن الشيوعية بعد من إثباتها أو البروز بها رغم خروجها منتصرة من الحرب الأخيرة .

وكانت هذه الأزمات دافعا قويا أقنع بريطانيا وأمريكا أن مستقبل العالم يتطلب تناميا وتعاوناً وتكاتفا بين حكومات الانجلوسكسون وبدأت هذه الظاهرة واضجة لمن أنصت إلى خطاب الرئيس ويلسون سنة ١٩١٦ وهذا التفاهم هو الذي أدى إلى دخول الولايات المتحدة في الحرب وهو الذي جعلها تقف في صف بريطانيا بعد انتهائها لمواجهة مشا كل العالم الجديد . والذي سيحتم يوماً تأليف كتلة منهما ازاء السوفييت

٢٠ — نظرة شرقية للعالم بين حربين :

لم تحصل أمم العالم على شيء من حريتها بعد الحرب الأولى ، وبقيت كما كانت خاضعة لسلطان أوروبا ودولها^(١) ومع هذا كان يبدو للناس أن الدنيا يغمرها طوفان أو فيض هائل من خيرات الله ، ولم يحدث في العالم أن وصلت مستخرجات المواد الأولية إلى ملايين من الأطنان من كافة الأصناف إلى ما وصلت إليه في السنوات العشر بين سنة ١٩٢٠/١٩٢٩ ، وما يقال عن المواد الأولية يقال عن المنتجات الزراعية والصناعية وغيرها مما تخرجه الأرض وتصنعه يد الإنسان ويقابل هذا الفيض العظيم حرمان غريب فرض على أكثر من

(١) استعملت مبادئ ويلسون لتحرير شعوب المستعمرات وطبقت في أوروبا فحسبت قيام الحرب الثانية .

ثلثي الإنسانية الذين يعيشون في مستوى من الفقر والفاقة لا يتناسبان مع المستوى اللائق بإنسان ففي الوقت الذي كانت فيه ثروات العالم وخاماته تنقل بانتظام على البواخر بين القارات وصل استغلال الشعوب الآسيوية والأفريقية وبعض الأمريكية إلى منتهاه بل إلى درجة لم تعرفها الأرض قبل ذلك وفي الوقت الذي كانت الدول الحاكمة تصرف الملايين على بناء الأساطيل وعلى ميزانيات الجيوش كانت هذه الأجزاء المغلوبة على أمرها تعاني من ويلات المجاعات والأوبئة وتخسر من أبنائها ما لم تكلفه الحروب من خسارة في الأرواح وكان ما يصرف على إنشاء بارجة واحدة يكفي لتعليم أبناء أمة تزرع تحت يرثى الاستعمار وما يصرف على فرقة دبابات مدرعة يكفي لإيواء أهل مدينة واسكانهم في منازل تشبه البيوت التي يسكنها الناس في أوروبا وأمريكا أن التسليح الجارف استهلك أحسن ما أخرجته عقول البشر وافقر الإنسانية وجعل بقاعا من الأرض تستمر خرابا إلى اليوم .

إن أكبر متناقضات المدنية الحديثة مدنية الرجل الأبيض سواء كانت رأسمالية أو شيوعية ديموقراطية أم نازية هي أن غالبية سكان الأرض لا يصيبهم منها سوى النزر اليسير إن لم يكن أقل من اليسير من الفيض الذي تخرجه أراضي بلادهم فسواء كان الاستعمار أوربيا

أو امريكا أو سوفيتيا فهو واحد لا يتغير ويصدق في سكان
المستعمرات والبلاد المحكومة قول الشاعر العربي .
كالغيس في البداء يقتلها الظما والماء فوق ظهورها محمول
ولنضرب لهذا مثلا عن سكان الأرض وتعدادهم وهو لا يقل عن
ألفي مليون نسمة ثم خذ المستوى في بلد من بلدان المستعمرات
في آسيا وافريقية ، أو في بعض بقاع أمريكا الجنوبية نجد أن أكثر
من نصف السكان من رجال ونساء وأطفال شبه عراة وهذا مما يجعل
أكثر^(١) من نصف الإنسانية في حاجة إلى الكساء بينما كانت آلاف
الأطنان من القطن الخام يحرق في المزارع الأمريكية من أجل
نصف ريال يدخل في جيوب المنتجين .

ولا تزال مشكلة نقص الغذاء تشغل العالم وهي مشكلة مخيفة إذا درسناها
على ضوء الدروس التي تلقيناها مصر في أدوار الغلاء والمجاعات التي مرت
بها في السابق وهبط بسببها عدد السكان وخربت مناطق كانت عامرة
في شمال الدلتا ، وفي مديرية البحيرة ، وعلى الطريق بين الإسكندرية
وبرقة^(٢)

ولا تزال ذكرى مجاعات الصين والهند تعاودنا ، ولا يمر عام
رغم ارتباط العالم وسهولة مواصلاته دون أن نسمع بإصابة المناطق
الروسية بقحط شديد ، حتى في سنوات الخصب والرواج نجد أن

(١) بقدر الكاتب الأمريكي إستورداد عدد الشعوب الملونة بأكثر من
نصف سكان الأرض (٢) راجع كتاب المقريري (اغاثة الامه بكشف الغمة)

أهل المستعمرات لهم نصيبهم من قلة الغذاء ونقصه ، بل ذكر كثير من رجال الاستعمار أن هناك ملايين من بنى آدم لا يصيبهم غير وجبة واحدة وضيئة في اليوم الواحد ، وكثيرا ماتكون مكونة من المرق وقليل من الأرز بينما هناك الأطنان من المواد الغذائية كانت تستعمل للحريق في القاطرات والبواخر لأن بلادها تريد أن لا تخسر ريالاً من أثمنها

وإذا كان الاستعمار من وسائل تعذيب الشعوب لخدمة دول معلومة ، أو طبقة حاكمة فيها فإن الاتحاد السوفيتي ضرب مثلاً في تعذيب ١٨٥ مليوناً من الناس لتطبيق نظام خاص فإن المبالغ التي صرفها الاتحاد على المزارع التعاونية والنموزجية وإدخال الصناعات قد نقلت فعلاً الاقتصاد الروسى إلى الأمام ، ولكنها اشترت بثمن فاحش وبجرمان الشعوب من حق الحياة الحرة ، وهل يمكن معرفة عدد السعداء حقيقة بين حدود حكومات الاتحاد السوفيتي .^(١)

مهما كانت الظروف المحيطة بالعالم اليوم وهى لا شك غير مشجعة فقد كانت مثل هذه الظروف سائدة قبل الحرب ، ولكن النيات كانت رغبة في الخروج من هذه الحالة أما اليوم فلا توجد هذه النية . بل كل الدلائل تقنع باقتراب العاصفة ففى تلك الأيام قامت الدعوة لعقد مؤتمر اقتصادى عالمى فى مدينة

(١) خصوصاً بين شعوب آسيا الوسطى والقوقاز والقرم الإسلامية

لندرة ولم يأت الاجتماع إلا بعد أن توالى النكبات وتعاقبت
الآزمات قبل سنة ١٩٢٣. وكان الغرض الخروج من حالة مبهمة .
وتعود بي الذاكرة لاقتناص بعض ما وعته نفسي ، فإني رغم
ابتعادي عن التفاصيل اذكر مبدأين نودى بهما وقتئذ .

الأول - أن بقاء الاتحاد السوفيتي يحكم سبع الأرض المعمورة
تحت انظمة تجعل منه بقعة بداخل سور فولاذي ، ويمنع أهله عن
الاتصال والأخذ والعطاء مع الأمم الأخرى ^(١) قد أخل بالتوازن
الاقتصادي العالمي ، وإن الأمم لن يتحقق لها الخلاص من الآزمات
إلا إذا عاشت الدنيا تحت نظام متجانس . وقال الآخرون إن علة
المدنية الحالية هو كثرة الانتاج ، وإن علاج الآزمات هو رفع
مستوى الجماعات البشرية التي تعيش في المستعمرات ووضعها في مستوى
يسمح لها أن تباع وتشترى وتحيا حياة الانسان وهذا هو المبدأ الثاني .
أما النظرة الشرقية بعد هذا فترى أن الحياة لا تحتل كل هذه
المفارقات وأن ما يصرف على الأساطيل والجيش هو مثل ما يصرفه
السوفييت على جيوشهم ومزارعهم ومصانعهم تدفع ثمنه البشرية
من حرمانها فلا يرتفع مستوى الجماعات في المستعمرات إلا اذا وطنت
الأمم الأوربية نفسها على السلام لأن الأسلحة التي تجمعها هولاندة هي
من دماء اندونيسيا والغريب أنها توجه في النهاية إلى صدور الأمم المظلومة

(١) لا تزال هذه الفكرة قائمة الى اليوم وهي المحرك الاساسي للحرب القادمة

والصناعات التي بقميمها السوفيت ويبدلون الجهود من أجلها قد يسهل على الآخرين إقامتها وإنشاؤها في روسيا بتكاليف أقل وبدون أن تتحمل الشعوب السوفيتية هذا الاجهاد الهائل والحرمان الدائم. إنك تحكم على فرد بالأشغال الشاقة مدة طويلة لتعده بأن يملك يوما عمارة أيومبيليا مع أن فتح هذا السور الفولاذي من حولهم يعيد الحياة إليهم، ويجعل من الدنيا موطننا واحدا للبشر كافة وهذه رسالة الرأسمالية في نظرهم.

كان مؤتمر لندرة الإقتصادى كسوق قام ثم انفض ولم يرج فيه أحد فلم تحل مشكلة المواد الأولية لأنها أساس الاستعمار وبقيت هذه المواد وأصحابها : أى سكان البلاد المظلومة على الحالة التي وجدهم المؤتمر عليها، ولم تلتق نظريات الروس مع عالم رأس المال، ولم تتق حتى الأمم الرأسمالية عند فكرة واحدة ولو أمكن الإنفاق على المواد الأولية ورضيت الدول الاستعمارية أن تشترك معها ببقية الأمم فى شيء من خيرات الأرض لما قامت الحرب العالمية الثانية وهكذا تفرعت اللجان فى المؤتمر وتوزعت الأعمال ووضعتم التقارير وخسر العالم آخر فرصة لإنقاذ السلم إذ بعد فشل مؤتمر لندرة سنة ١٩٣٣ تسابقت الدول إلى التسليح واستعدت للحرب العالمية التي بدأت منذ سنة ١٩٣٣ ولم تثنه بعد.

قامت هذه الحرب والعالم مكون من عدة كتل تختلف قوة وهي:
١ — الولايات المتحدة وممتلكاتها ودول الأمريكيتين.

- ٢ — بريطانيا وأمبراطوريتها وأصدقائها ومعها هو لاندو
ومستعمراتها والبرتغال ومستعمراتها.
- ٣ — وروسيا في أوروبا وآسيا .
- ٤ — فرنسا ومستعمراتها وفيها باجيك وتوابعا .
- ٥ — اليابان والشرق الأقصى .
- ٦ — ثم إيطاليا تحاول أن تبني لها أمبراطورية .
- أما بقية العالم فاستمر حائراً ينظر إلى المستقبل بأساليب القرن
الماضي أحيانا وكانت ألمانيا تسير بخطوات جبارة وهي التي تملك
أكبر جهاز صناعي في أوروبا ولا ينقصها سوى المستعمرات لتكوين
أكبر الكتلة العالمية وهذه سرقت منها في فرنسا ولما وفقت الأمل في
أخذ المواد الأولية بالسلم في مؤتمر لندرة استعدت أن تأخذها بالسيف
وكانت إسبانيا في موقف أمة شرقية تحاول أن تقلد الغرب وتنام
ملء جفניה لتحلم بالارمادات مختر البحار وفرديناند^(١) وإيزابلا يطاردان
المورييسكو^(٢) الملعون على سفوح جبال أطلس وكانت إيطاليا لا تنفك
تردد أغنية الأمبراطورية الرومانية في الصباح والمساء حتى ضج
الناس من روما ومجدها وشرائعها وكان للتحالف الصغير مشكلة
تقلق مضاجع كل من رومانيا وتشكوسلوفاكيا ويوجوسلافيا
هي قبعة الأمير الطفل الوارث لعرش هابسبرج وكانت بولونيا

(١) اسم ملك إسبانيا وملكها الذين طرد العرب في عهدها .

(٢) الاسم الذي يطلق على المسلمين .

فرنسية عاما حيادية عاما وانتهت إلى أن جعلها الكولونيل بيك وزير خارجيتها حليفة لألمانيا ثم دهمته الطائرات الألمانية حتى خرج شاردأ من بلاده .

هذه حالة أوروبا عند قيام الحرب بعد إن فشلت إجتماعات لندرة لتأليف عالم جديد بالتفاهم والإرادة الحرة ثم ظهر أن الفريق الغالب هو الذى يملك من القوى الإنشائية والدعائم الاقتصادية أكثر من غيره وأن الأسلحة تذب وتفنن والمبادئ المتطرفة والأحزاب تبلى بجانب هذه السيطرة الصناعية القوية ولذلك أخذت خطوات التكتل تسير بسرعة فائقة فهو لاندو والبرتغال اتجهتا نحو الكتلة البريطانية وجمهوريات أمريكا الجنوبية التأمّت فى النظام الاقتصادى للولايات المتحدة .

وانقسم العالم الرأسمالى شطرين : الذين ملكوا الأرض واستكفوا^(١) والذين يرغبون فى المستعمرات وقادت ألمانيا الفريق الثانى وانضمت إليها إيطاليا واليابان وحالفتها إسبانيا وانتهت الحرب فإذا الرأسمالية ممثلة فى كتلتين أمريكا وبريطانيا وذهبت اليابان وإيطاليا وضعفت كتلة فرنسا أمام صيحات موسوليني الذى مات بعد أمضى السنوات يقول :

« المستكفون لا يشعرون بحاجة غير المستكفين ، وهذه مع أمبراطوريتها فى الجزء الشمالى من إفريقيا موضوع هذا الكتاب .

(١) راجع : خطب ومؤلفات موسوليني